العمـارة العربيـة الاسلاميـة
فـي
المنظـور الاستشراقـي

(العمارة الاسلامية) (تطور العمارة) (أصالة العمارة)

بحث مشترك من قبل

المدرس الدكتورة
بان حسين حسن السنجري
تاريخ اسلامي
رئاسة الجامعة المستنصرية

المدرس الدكتورة
لمى فائق احمد
تاريخ اسلامي
كلية الآداب

الجامعة المستنصرية
٢٠١٢-٢٠١٣

العمارة العربية الاسلامية في المنظور الاستشراقي

الملخـــص

العمارة الاسلامية هي الخصائص البنائية التي استعملها المسلمون لتكون هوية لهم ، وقد نشأت تلك العمارة بفضل الاسلام وذلك في المناطق التي وصلها لشبه الجزيرة العربية ومصر وبلاد الشام والمغرب العربي وتركيا وايران وغيرها بالاضافة الى المناطق التي حكمها لمدد طويلة مثل الأندلس والهند ، وتأثرت خصائص العمارة وصفاتها بشكل كبير بالدين الاسلامي والنهضة العلمية التي اتبعته.

وارتبطت دراسة العمارة الاسلامية في عصرنا بعلم الآثار الاسلامية الذي نشأ على يد المستشرقين وهواة الآثار الغربيين ، ومن ثم تأثر هذا العلم بمناهجهم واسلوبهم في التفكير وانعكس ذلك على طريقة تناول العمائر الاسلامية الباقية بالوصف والتحليل.

Administrative

Arab Islamic architecture in the orientalist Perspective

Abstract

Islamic architecture are the characteristics of building used by Muslims to be the identity of them have emerged that architecture thanks to Islam and in areas where he arrived to the Arabian Peninsula, Egypt and the Levant and the Maghreb, Turkey and Iran and other addition to the areas ruled by long – term, such as Andalusia and India , and affected properties architecture and characteristics significantly Islamic religion and scientific renaissance.

Linked study of Islamic architecture in our archaeology, created by amateur orientalists and western implication, then this knowledge affected their curricula and their style of thinking, reflected on the handling of Islamic buildings remaining, description and analysis.

المقدمـــة

الاسلام حضارة لا يحدها زمان أو مكان وأن بها من المضامين والقيم المعمارية الثابتة التي لا تتغير بتغير المكان والزمان ، أما الشكل فهو العامل المتغير بتغير خصائص كل مكان وزمان ، وإن العمارة في أي عصر هي إفراز لطبيعة هذا العصر سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً مع البحث دائماً عن المضمون الاسلامي في هذه العمارة حتى تتصف بالاسلامية ، حيث أن الاسلام لا يحده زمان أو مكان فهو يعطي القيمة والمضمون وإن إختلف الشكل بإختلاف بيئة المكان.

ومنذ بداية القرن العشرين وتاريخ المدينة الاسلامية تتعرض للكثير من التشويه والإساءة من قبل المستشرقين من خلال أبحاثهم فقد حاولوا إثبات عدم مساهمة المسلمين في بناء المدن وعدم معرفتهم في الحياة المدنية والحضرية عموماً ، فهم مجرد قبائل رحل تعودوا على الانتقال وعدم الاستقرار ، وإن المدن التي شيدت في العصور الاسلامية كانت مدناً حربية بالدرجة الأولى وكانت إمتداداً للمدن البيزنطية والرومانية والفارسية ، وإن المدن الاسلامية لم تشهد تطوراً ولم تقدم خدمات مدنية للسكان ولم تعرف منهجاً للتخطيط العمراني ، هذه الآراء للمستشرقين وغيرها كانت الدافع الأساسي لإعداد هذا البحث ولكي يؤدي البحث هدفه ينبغي أن يتكون من أربعة محاور رئيسية : يتضمن المحور الأول مفهوم العمارة الاسلامية ، أما المحور الثاني فكان عن العمارة الاسلامية والمدينة الاسلامية ، فيما تناول المحور الثالث العمارة الاسلامية في التراث الاستشراقي وتم التطرق الى تطور العمارة العربية العربية الاسلامية وأصالة العمارة العربية الاسلامية ضمن المحور الرابع وهو الاسلام والعمارة.

وختاماً لابد من القول أن هذا البحث لا يعدو أن يكون إلا محاولة لإلقاء الضوء والتعرف على أصالة العمارة العربية الاسلامية لكونها نابعة من خصوصية الانسان العربي المسلم ودورالدين الاسلامي الواضح في توليد شكل معماري ونسيج حضري يتلائم مع المحددات والعوامل البيئية الثقافية والاجتماعية.

المحور الأول : مفهوم العمارة الاسلامية

ارتبط الخطاب المعماري العربي بالكثير من المصطلحات والمفاهيم التي شكلت وتشكل أبجدياته ، حيث دأب المفكرون على استخدام العديد من المصطلحات التي باتت شائعة الاستعمال من جهة ، ومن جهة أخرى فقد نحا هذا الاستعمال منحى تطبيقياً إذ إنعكس على الفكر المعماري وأبرز هذه المفاهيم ، مصطلح شائع متداول نطلقه لوصف العمارة العربية التي سادت منذ منتصف القرن (١هـ / ٧م) وحتى أواخر القرن (١٣هـ / ١٩م) في الرقعة الشاسعة الممتدة من الهند وتخوم الصين شرقاً الى المغرب وجنوب أوربا غرباً ، وتشمل أقطاراً عدة عربية اسلامية وهذا المصطلح هو مصطلح (العمارة الاسلامية).[١]

وهنالك مجالان رئيسيان للتعرف على ماهية العمارة الاسلامية :

المجال الأول : معماري تاريخي وعاطفي والذي يعتمد على ثلاث محاور تنظيرية في تعريف الحضارة الاسلامية وهي (المحور الشكلي والمحور الروحاني الصوفي والمحور البيئي) والتي تتقاطع هذه المحاور الثلاثة لتعطي التعريف الأكثر رواجاً في الوقت الحاضر للعمارة الاسلامية الذي يركز على الأشكال المتميزة للنماذج التاريخية وعلى البعد الروحاني الصوفي وعلى إستجابة بيئية عضوية للمناخ الصحراوي الحار والجاف تحديداً.[٢]

أما المجال الثاني فهو أكاديمي محايد يعتمد على البعدين التاريخي والجغرافي ، فتاريخ العمارة الاسلامية يمتد ما بين القرن (١هـ / ٧م) وبداية القرن (١٣هـ / ١٩م) منذ ظهور الاسلام وحتى عصر الغزو الاوربي لمعظم الأراضي الاسلامية ، أما البعد الجغرافي فيرى أن العمارة الاسلامية هي مجمل المباني والمنشآت التي تحفل بها مدن العالم الاسلامي ومناطقه بما فيها تلك التي شكلت يوماً ما جزءاً فيه ثم انتزعتها حضارات أخرى كالأندلس وصقلية ، أو تلك ضمت إليه أخيراً كتركيا مثلاً.[٣]

وقد ارتبط مفهوم العمارة الاسلامية بإطار نظري عام يرمز للعمارة التي سادت بعد ظهور وانتشار الاسلام ، لا كدين مؤثر تأثيراً مباشراً في العمران وإنما كانت له ارتباطات حضارية أوسع وأشمل وهكذا كان الحال حتى أواخر السبعينات حيث قدمت فئة من الباحثين العرب والمسلمين المتحمسين لدراسة الشريعة الاسلامية والفقه واجتهاداته وربطها بإفرازات الناتج العمراني في المدينة العربية التقليدية ما نجم عن هذه الدراسات أنها أغرقت في تقديم نمطية ومنهجية مبتدعة من الدراسات تحت إطار سابق أشمل ، هو إطار "الإسلامية" الذي كان يشمل قبل ظهور هذه الدراسات إطاراً حضارياً لثقافة الإسلام.[٤]

ومنذ الثمانينات نتج فهم خاطئ قاصر لمصطلح العمارة الاسلامية بحيث أصبح له دلالات شرعية أكثر منها دلالات حضارية أعم وأشمل فأصبح مفهوم العمارة الاسلامية مفهوم مرتبط بالاسلام كعقيدة دينية وايديولوجية فكرية أكثر من دلالته العامة الواسعة للمدينة كمنتج ثقافي وحضاري ضمن ظاهرة تاريخية إنتشرت منذ القرن (١هـ / ٧م) بما تشمله من حضارة بالمفهوم الواسع للكلمة.[٥]

وكان مفهوم العمارة الاسلامية إستشراقياً بمعنى أنه اختراع إستشراقي أطلقه الرحالة والمستشرقون على العمارة العربية الاسلامية وتبناه مفكرونا وباحثونا ، وقلما يخلو كتاب من الكتب التي يصف عمارة العالم العربي قديماً وحديثاً من هذا المصطلح وأول من أشار الى هذا المصطلح (كريسويل) في كتابه العمارة الاسلامية المبكرة والذي هون به من المنجز الحضاري المعماري على إمتداد التاريخ الاسلامي.[٦]

وتعود بواكير التنظير في العمارة والفنون الى أزمنة غابرة وتناغمت مع الخطاب العقلي الخاص بالحقيقة الزمنية فتحولت من اسطورية الى وصفية ثم مادية ، ولم تطأ المنهج التعليمي الا خلال القرنيين الماضيين ولم تخلو مصنفات التراث من حديث عن العمارة بما لايمكن ان يشكل قاعدة بحثية منفصلة أو نظرية قائمة ، ويمكن أن يعود اطلاق تسمية (العمارة الاسلامية) الى القرن (١٣هـ/١٩هـ) على يد المستشرقين الغربيين على قاعدة كونها مفهوم ومسمى ورد من كنف التراث الثقافي الاسلامي ، وليس حالة مجسدة للعقيدة الاسلامية[٧] .

ويمت مفهوم (العمارة الاسلامية) بصلة متأخرة الى نتاج جهود بذلها الغربيون لدراسة الاسلام والمسلمين ، بدأت بالدراسات اللاهوتية لأغراض جدلية ثم توجت بالدراسات الاستشراقية التي وطأت تباعاً العلوم والتاريخ ثم الفنون منذ القرون (١١ و١٢هـ/١٧ و ١٨م) . ولم يكن مفهوم تلك العمارة صريحاً في بواكير النشاط الاستشراقي ، وقد حصل خلط في اطلاق تسمية (العمارة الاسلامية) بما تعكس في فحواها لجزء من تراث شعوب تعتنق الاسلام ديناً ، أو تعكس منهجية فكرية وتجسد جوهر الاسلام . ويمكن تحديد بواكير ذلك المسعى الى دأب الغربيين من مؤرخي عمارة ومستشرقين في البحث عن جذور الكثير من عناصر العمارة المقتبسة التي لم يجدوا لها في روما أو أثينا موطأ قدم تماشياً مع خطاب فكري يحدد ويقتصر ابداع البشر على مصدريه الاغريقي والروماني وأراد أن يسبغ على الاوربيين صفة الوريث الشرعي لتلك الحضارات.[٨]

وكان للتلاقح الحضاري في الاسلام وجنوب أوربا أثره في خروج طرز معمارية بعينها كالرومانسك والقوطي والباروك التي لم تكن قطعاً وليدة الهام هبط من السماء ولا سيما في ظروف التخلف بقدر كون تلك الطرزامتدادات لجذور جلبتها العمائر والفنون المجاورة الارقى

وتتمثل في عمائر الاسلام وهكذا قدم الشرق الاسلامي حصيلة نتاجه المعماري الى الغرب الاوربي المسيحي الذي أسبغ عليها تسميات واصطلاحات.[٩]

ولقد تداول المستشرقون المواضيع الشرقية بصفة شاملة ، ولم ينبري للكتابة عن العمارة بالخصوص إلا نفر منهم كانت باكورتها خلال الربع الاخير من القرن (١٣هـ/ ١٩م) ولم يكن مفهومها محدد المعالم وأختلفوا حتى في تسميتها وقد وردت عدة مصطلحات للدلالة على عمارة الاسلام منها:-

١- العمارة الساراسينية : وينحدر هذا المصطلح من اليونانية القديمة واستعمله المؤرخ بطليموس محدداً هوية العرب الانباط الذين يقطنون البتراء ، ثم استعمله الرومان للدلالة على أهل البادية الذين يقطنون الجزيرة الفراتية وهكذا تم تحديد ذلك بالعرب دون سواهم خلال الحقب البيزنطية وتوسع في الحروب الصليبية وشاع في القرن (١١هـ/١٧هـ) وأطلق على المسلمين عموماً ويعزي البعض انها محرفة من (شرقيين) أو ويذهب البعض الى انها مركبة وتعني (عبيد سارة) أو أولاد اسماعيل.[١٠]

٢- العمارة المحمدية : وقد شاع استعمالها منذ أواسط القرن (١٣هـ/ ١٩م) ، ووردت لدى (مارتين بريكس) في كتابه (العمارة المحمدية في مصر وفلسطين).[١١]

٣- العمارة العربية أو عمارة العرب : سميت بسبب التداخل بين الاسلام والعرب وقد استعمله المستشرقون ومنهم (غوستاف لوبون) الذي كتب (حضارة العرب) متضمن كل نتاجها ومنها المعماري.[١٢]

٤- العمارة الاسلامية أو المسلمانية : وتحكم في هذا المصطلح الجانب اللغوي الى حد ما ويمكن اعتبار ذلك المفهوم هو الأقرب الى الصواب ومن أوائل من كتب بهذا المصطلح بالفرنسية (M. Saladin) في كتابه (ملزمة الفن الاسلامي).[١٣]

٥- العمارة المورية : الذي أطلقها الاسبان على المغاربة ثم حدث أن انتقلت لتدل على المسلمين تحديداً وتوسعت حتى سمي بها مسلمي الفلبين وجزر المحيط الهادي ، وقد انتقلت الطرز (المورية) الاسلامية الى أمريكا اللاتينية وجزر المحيط الهادي خلال القرن (١٠هـ/ ١٦م).[١٤]

ويتخذ من متغيرات المكان والزمان منهجاً ولا سيما تطور الحياة الاجتماعية والطفرات في الحياة الحضارية والعلمية التي نتج عنها مفاهيم وقيم جديدة وتمخضت عنها مواد بناء جديدة بمواصفات مختلفة بحيث ترسم تباعاً محيا جديدة للعمارة وأشكال معمارية تختلف في جوانبه عما ألف في التراث وهو (العمارة الاسلامية).[١٥]

فعمارة المسلمين هي عمارة المجتمع الاسلامي التي تعكس قيمته الحضارية ومتطلباته المعيشية في أي مكان وزمان ، لذلك فأن المنظور الاسلامي في النظرية المعمارية هو منظور اجتماعي كما هو منظور علمي وفني فالانسان له حواسه وعواطفه كما له متطلباته وتطلعاته وهو في النهاية المستفيد الأول في البناء المعماري في المدينة الاسلامية ، وأنه من الصعب فصل الانسان عن العمران عند التعرض للمفهوم الحقيقي لعمارة المدينة ، واذا كان الاسلام في حالتنا هذه هو الموجه لحياة السكان في المدينة بنظمها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، فأن ذلك سوف ينعكس بالتالي على التشكيل المعماري للمدينة فالعودة الى المنهج الاسلامي في تنظيم حياة الأمة سوف يعيد بالتالي الى المدينة وجهها الاسلامي آخذاً بكل أسباب التقدم والحضارة كما يدعو اليه الاسلام ويلفظ عما أصابها من تغريب أو تخريب.[١٦]

المحور الثاني : العمارة الاسلامية والمدينة الاسلامية

يعتقد بعض الباحثين العرب والمسلمين أن مصطلح المدينة الاسلامية والعمارة الاسلامية ما هو الا فخ وصفه المستشرقون وروجوا له وتبعه الاكاديميون ولعل أهم شخصية أكاديمية نظرت لهذا الفهم هو (دوكان كويان) التركي الذي روج بدوره للعمارة الاقليمية كبديل.ولاخلاف أن مصطلح المدينة قد ظهر في الأدبيات العربية والاسلامية في وقت مبكر تحت مسمى الخطط والعمران والمصر أو التمصير ، وذلك نجده في كتابات ابن خلدون والمقريزي وبما أن المدينة والعمران كانا يخضعان للاسلام ولم يتصادم مع أحكامه فمن البديهي الا يضيف هؤلاء مصطلح الاسلامية للمدن طالما أنها كتابات دينية ، داخلية أ ذاتية ، فالبعد الديني في العمران كان يرادف كتاباتهم كما يبين لنا منهجهم في ذلك حيث التذييل لكل فصل أو باب أو حكمة بآية قرآنية عند التوصل الى ما يرونه أنه من قواعد العمران ، مما يثبت ربطهما الوثيق بين القراءتين . فالظاهرة العمرانية أو المدينة كسنن كونية وضعها الله تعالى والدين كنص أو وحي يبين السنن الالهية في الكتاب ، ولعل ذلك ماسمي بأسم "التوفيق بين القراءتين" أي الدينية والكونية ولقد كان الأسلام أنذاك حاضراً وقائماً في نفوس وعقول الأفراد رؤيتهم للوجود.[١٧]

وأن ظهور مصطلح (الاسلامية) في الكتابات الاستشراقية يعود الى كون الكتابات خارجية عن دائرة الاسلام وحضارته ، فقد كان المستشرقون يدركون الخلاف الواضح في المنطلقات الحضارية لكل من الغرب والبلاد الاسلامية ، كما أدركوا أن الاسلام كان قطب الرحى في الحضارة الاسلامية وبالتالي في العمران والتمدن ومع ذلك فأن ابرازهم لدور الاسلام لم يكن بهدف تمجيده بقدر ما أنه الصاق التهمة به، والمتأمل في دراسات الغربيين لمصطلح "العمارة الأسلامية " يجد انها أكثر حذراً وأكثر تمحيصاً ، فالمفهوم الذي درج للعمارة الاسلامية كان

غالباً بالاشارة لها " كتوصيف لطراز معماري " مرتبط بمجموعة من الاشكال والمفردات ونظام للبناء تطور تاريخياً على مدى فترة زمنية خلال الحكم الاسلامي لسلالات منذ الامويين وحتى العثمانيين ، وهذا التوصيف الحضاري الشامل يحوي اشارات لمكان وزمان وحضارة وإنسان ،لكننا مع ذلك نجد ان اشارة الباحثين الغربيين لهذا المصطلح كانت تعكس رؤى متباينة ، فمنهم من يشير للعمارة الاسلامية بطريقة تعكس فهماً مختلفاً ، فمنهم من يستخدم تصنيفات تتبع الجغرافيا وتقسم العمارة الاسلامية بناء غلى الاقاليم ، والبعض منهم يستخدم تتبع انماط المباني في الاقاليم ، وعلى النقيض من ذلك نجد من استخدم تصنيفاً يعتمد على السلالات الحاكمة في الفترات الاسلامية (الايوبيين، الفاطميين، المماليك البرجية، المماليك البحرية) وهكذا كان الحال حتى اواخر السبعينات وبداية الثمانينات.حين قدمت فئة محدودة من الباحثين المتحمسين لدراسة الشريعة الاسلامية والفقه واجتهاداته وربطها بإفرازات الناتج العمراني في المدينة العربية التقليدية . ما نجم عن هذه الدراسات تقديم نمطية ومنهجية مبتدعة من الدراسات تحت اطار سابق اشمل هو اطار "الاسلامية" الذي كان يشمل قبل ظهور هذه الدراسات إطاراً حضارياً لثقافة الاسلام وكظاهرة تاريخية امتدت منذ القرن السابع الميلادي وحتى اليوم . وهكذا غدت دراساتهم المستندة للتشريع واستباطاتهاهي عبارة عن جزيئات لفهم محدود وخاص لنصوص وقواعد فقهية تم التقاطها من مجموعة من الكتب خارج تخصصاتهم كمعماريين [١٨].

أما دراسات المستشرقين الخاصة التي نشأت بعد حقبة الثمانينات فلها أن تنحصر في المصطلح المبتدع أكاديمياً وسياسياً أيضاً والمتمثل في الاسلاموية المرتبط بالشريعة كما قوقعت هذه الدراسات المدينة العربية بها كأنها ناتج مباشر لها. وهو مفهوم مرتبط بالاسلام كعقيدة دينية اكثر من دلالاته العامة الواسعة للمدينة كمنتج ثقافي وحضاري .

وثمة مصطلح سياسي واعلامي واكاديمي بات يستخدم مؤخراً وتحديداً بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ لتوصيف مجموعة من الافكار والاهداف السياسية النابعة من الشريعة الاسلامية ،وهذا المصطلح هو (الاسلاموية) وتعني الاسلام السياسي اصطلاحاً أو (Islamism) وبالمقابل نجد مصطلحاً متوازناً غلب استخدامه قبلاً وهو مصطلح (Islamic) بما تحمله من مبدأ النسبة في البلاغة العربية يرده الى الاسلام ديناً وحضارة.[١٩]

ومن اللافت أن المستشرقين الذين تبنوا مصطلح العمارة الاسلامية (Islamic architecture) بدلاً من لفظة عمارة المسلمين (Muslims architecture) مع الفرق الشاسع الذي تعنيه اللفظتان ، لم يوظفوا ذات المفهوم في حال المدينة العربية وانما استعملوا لفظة مدينة المسلمين (Muslim cities) أحياناً أو المدن شرق أوسطية (Middle Eastern cities) في أحيان اخرى ومثال عليهم الرحالة (لابيدوس) الذي استعمل هاتين اللفظتين في كتابيه اللذين

يحملان ذات الاسم الاول وهو (مدن المسلمين في أواخر العصور الوسطى) والثاني هو (مدن الشرق الاوسط).

وعليه فأننا وبحسب ما سبق يمكننا جدلاً استعمال مصطلح العمارة العربية الاسلامية والمدينة العربية الاسلامية للدلالة على المنظور الشامل للحضارة التي نشأت بعد ظهور الاسلام ولكننا في نفس الوقت نرفض استخدامها للدلالة على فهم جزئي للاسلام بارتباط نواتجه العمرانية بنظرة ضيقة لمفرزات الشريعة وفقه العمران وبذلك فبالامكان استخدامها بأطره العامة وبتفصيلاته ضمن تفرعاته المحلية والاقليمية بالقول مثلاً : العمارة العربية الاسلامية حالة مدينة القاهرة في العصر المملوكي مثلاً أو نقول العمارة العربية الاسلامية حالة اقليم حضرموت في مضمونه الاسلامي ، واستعمالنا للمصطلح بكلمتيه (العربية الاسلامية) حتمي ولازم للدلالة على سبق العربية للاسلام ، فهو دين جاء في الجزيرة العربية وارتبط ارتباطاً وثيقاً باللغة العربية حتى وأن كان البعض يرفض وجود حضارة للعرب قبل الاسلام.[٢٠] فالظاهرة العربية قبل مجيء الاسلام شكلت الاساس الذي قامت عليه الحضارة الاسلامية لاحقاً بما احتوته الثقافة العربية قبل الاسلامً[٢١] . وعليه فممكن ان يطرح مصطلحين شموليين لدراسة العمارة العربية هما "عمارة ما قبل الاسلام "وتتفرع منها حقب ومناطق جغرافية يمكن تطوير مشاهد ثقافية وفكرية معمارية اما الفرع الثاني في مجال الدراسات المعمارية فيبقى "العمارة في الحضارة الاسلامية وهو هنا يشمل ما هو عربي وغير عربي ويتفرع الى حقب تاريخية ويمتد على مساحات جغرافية واسعة وبالتالي فإنه علم مستقل .

ومن هنا تبين ما نتج من ابتداع مفهوم المدينة العربية الاسلامية وكيف قدمتها هذه الدراسات كمفهوم لا تاريخي متقوقع وجامد من خلال استنباط مجموعات من النصوص والقواعد ومناحي الحياة السالفة وتأويل النصوص تأويلاً يقف بنموذج المدينة عند حدود الماضي كتاريخ متجمد.[٢٢]

المحور الثالث : العمارة العربية الاسلامية في التراث الاستشراقي

أرتبطت دراسة العمارة الاسلامية بعلم الآثار الاسلامية الذي نشأ على يد المستشرقين وهواة الآثار الغربيين ومن ثم تأثر هذا العلم بمناهجهم وأسلوبهم في التفكير وأنعكس ذلك على طريقة تناول العمائر الاسلامية الباقية بالوصف والتحليل.[٢٣]

ودأب بعض المستشرقين على مهاجمة الاسلام في جانبه الحضاري وتناولوا جميع العناصر المعمارية والفنية وردوها الى إصول غير عربية وغير إسلامية ورفضوا الآراء التي تعطي العرب والمسلمين حقهم في الابتكار والابداع ، وقدموا أبحاثاً ظالمة للعناصر المعمارية العربية والاسلامية حيث كانت تنسبها الى شعوب غير عربية وديانات أخرى غير الاسلام ، ويرجع هذا الاهتمام الكبير بالعلاقة بين المدينة والعمارة الدينية والتقاليد الاسلامية في هذا الشأن الى أنه وعلى الرغم من عظم الإسهام الذي قدمه المسلمون في هذا الشأن والذي يبدو جلياً وظاهراً للعيان على إمتداد حزام هائل يصل ما بين الأندلس غرباً الى مشارف الصين شرقاً ، فأننا سنجد أن فريقاً من المستشرقين يعمد إلى التشكيك في وجود مفهوم إسلامي لتخطيط المدن أصلاً.[٢٤] فمثلاً :

- المستشرق (أوليج جرابار) يذهب في دراسته (المدن والمواطنون) الى القول "أن المدينة الاسلامية ليست غير سلسلة من الصراعات بين أقطاب متنافرة غير قابلة للإمتزاج في أغلب الأحيان خاضعة لمتغيرات الزمان والمكان أكثر منها كياناً إجتماعياً وعضوياً خاضعاً لسنة التطور الاجتماعي .. وأنه كان قد طرأ على مجريات التحضر في المدن الاسلامية بعض التطور في الفينة بعد الفينة فإن مرد ذلك إلى نزوات الحكام أو نزاعات السلطة القائمة".[٢٥]
- المستشرق (جرونوبوم) : صنف المدن الاسلامية الى مجموعة المدن التلقائية أو العفوية أو العشوائية لأنها نمت بدون تخطيط الدولة ونمت من تلقاء نفسها.[٢٦]
- المستشرق (لامينس) : أعتبر مدن الحيرة والفسطاط والقيروان غير منظمة وغير مناسبة لأنها لم تخطط من قبل السلطة المركزية وإنما من السكان وحدهم.[٢٧]
- المستشرق (كوبياك) : يصف القبائل العربية التي خرجت من الجزيرة العربية وفتحت موقع الفسطاط وسكنتها كانت ذات حضارة أدنى من حضارة أولئك الذين فتحت بلادهم ، فمن المستبعد أن يكون لدى العرب الذين أوجدوا الفسطاط أي فكرة واضحة عن تخطيط المدن ، ولأن التخطيط كان غريباً على حضارة العرب لا يمكن تصور إمكانية إنشاء مدينة عربية عسكرية على خطوط منظمة كالمدن الرومانية التقليدية أو العسكرية بشوارع مستقيمة ذات نمط مشابه لرقعة الشطرنج ، متطلبة بذلك التنظيم والطاعة من السكان.[٢٨]

- المستشرق (أرنست جروبه) في كتابه (العمارة الاسلامية) فهو لا يتردد في المضي الى الزعم بأن العمارة الاسلامية هي عمارة محجوبة أو عمارة لا وجود لها وذلك بقوله ((أن العمارة الاسلامية لا تعنى بالمظهر الخارجي للمبنى العناية كلها ، كما تحيط به مبان ثانوية تحجب معالمه كالأسواق الملتفة بالمساجد من شتى أركانها حتى تكاد تطغى عليها ، وإن المبنى الاسلامي يفتقر إلى ما يوضح شكله أو حجمه أو وظيفته وحتى لو كان للمبنى واجهة أو مدخل واضحان فأنهما لا يفصحان عن الكثير مما يحجبان وراءهما ، ومن هنا يستعصي على الرآي أن يدرك من خلال السطح الخارجي للمبنى الاسلامي ما يحويه من ملامح رئيسة)).[٢٩] فضلاً عن ذلك يرى أغلب المستشرقين أن الفنون السائدة عندما إنتشر الاسلام على أيدي العرب الفاتحين إنحصرت آنذاك في فنين هما : الفن البيزنطي وهو يعتبر وريث الفنون الكلاسيكية الأخرى والذي كان منتشراً في الشام وفي مصروفي شمال أفريقيا ، والفن الساساني الذي إنتشر في العراق وفي أطراف الجزيرة العربية.[٣٠]

وهكذا اتفق أغلب المستشرقين على إنكار أي فضل للعرب وجردوهم من كل حس فني أو إستنباط معماري ، وأكدوا على أن الجزيرة العربية كانت فراغاً معمارياً قبل الإسلام وأن العرب لم يأتوا بأي شيء يذكر لإثراء الفن المعماري بالبلاد التي فتحوها ويؤكدون على أن الدين الإسلامي نشأ في وادٍ غير ذي زرع لم ينتج حضارة ذكرت في تاريخ الإنسانية.[٣١] فيذكر المستشرق (ج. مارسيه) (أن الفن العربي هو آخر الفنون التي ظهرت للوجود من بين الفنون العظمى بالعالم القديم ، ولذلك فلابد أنه تأثر بالفنون التي سبقته).[٣٢] ويذكر (هنري تيراس) أن كل البلاد العربية أخذت عن سوريا أي بطريقة غير مباشرة عن الحضارة الهيلينية ثم الرومانية ويرى أنه عندما إنتقلت الخلافة الى بغداد لعب العراق نفس الدور الذي لعبته بلاد الشام عندما كان يحكمها الأمويون. وهكذا تأثرت العمارة الاسلامية والفنون الزخرفية تأثراً عميقاً بالفن الساساني وهو ما يذهب إليه أبرز المستشرقين أمثال (كرزو) و (ج. مارسيه) و (بابادوبولو).[٣٣]

والأمثلة عديدة عن محاولات المستشرقين تجريد الفنان العربي المسلم من أي خلق أو إبداع ، فالمستشرق (كريسويل) الذي ألف أحد أهم المصنفات في تاريخ العمارة العربية الاسلامية ، قد درس معلمة قبة الصخرة وقسم عناصرها وزخارفها الى أجزاء ، ورأى أنها تتمثل في : ٢٢% من المصادر الرومانية و٢٢% من المصادر البيزنطية و٥٥% من المصادر السورية المسيحية ، و ١% لم يحدد المؤلف مصدره ، وهو نفسه الذي يؤكد أن عرب ما قبل الإسلام لم يكن لديهم إلا أفكار باهتة أو بدائية عن العمارة والبناء.[٣٤] وأن بلاد العرب كانت تمثل فراغاً معمارياً يكاد يكون تاماً وأن الصفة العربية يجب ألا تستخدم للتعريف بعمارة العصر الإسلامي.[٣٥]

وفضلاً عن ذلك فمن القضايا المعمارية التي أراد المستشرقون إلباسها ثوب الباطل قضية (المسجد) والذي يعد أهم المنشآت التي تمتاز بها العمائر الإسلامية. فقد رأى الكثير من المستشرقين أن العرب لم ينشئوا المساجد في العهود الأولى للإسلام بل إتخذوا الكنائس أول الأمر لإقامة شعائرهم حيث رأوا أن المسلمين إهتموا بالفتوحات وتدعيم مبادئ الدين الإسلامي ولم يجدوا متسعاً من الوقت للبناء والتشييد لذلك نجدهم يقتسمون الكنائس مع المسيحيين في دمشق وحلب وحمص وقرطبة وغيرها.[٣٦] وإنطلاقاً من هذه المعطيات ، أكد الكثير من المستشرقين نتيجة لإتخاذ المسلمين أجزاء من الكنائس جوامع لهم ، على أن تخطيط المسجد موروث عن تخطيط الكنائس.

ولم يكتف المستشرقون بهذا ، بل أكد الكثير منهم أن العديد من عناصر الجامع أشتقت هي الأخرى من بعض عناصر الكنائس ، من ذلك مثلاً : المحراب والمنبر والمئذنة ... الخ.[٣٧] وقد ساند بعض العلماء العرب المستشرقين فيما ذهبوا إليه ، حيث رأوا أن المحراب منقول عن الجزء المجوف للكنائس القبطية (أي الهيكل).[٣٨]

وهكذا حاول الكثير ن المستشرقين النيل من الحضارة العربية ، فقد أبدلوا مصطلح "فن عربي" بـ "الفن الاسلامي" محاولة منهم إزالة أي إبداع عربي وذلك على أساس أن شعوبنا مختلفة ، وغير عربية ، وهي متكونة من مصريين وفرس وروم وغيرهم ، ومن المؤكد أن الغربيين حاولوا حرمان العرب أن تسمى حضارتهم وعمارتهم وفنونهم بالعربية نسبة إلى دولتهم التي بسطت نفوذها على عدة أقطار إسلامية تسكنها شعوب عربية ، بينما لم يحرم الرومان والبيزنطيون والساسانيون من أن تنسب حضارتهم وعمارتهم وفنونهم إليهم ، مع أن هذه الدول كانت تتكون من أجناس وشعوب مختلفة ، ومع أن علماء الفنون والآثار هم أدرى الناس بأن كل طراز فني من تلك الطرز قد قام على أسس من فنون أخرى معاصرة له أو سابق عليه.[٣٩]

المحور الرابع : الإسلام والعمارة

كان الإسلام ذا نظرة ثورية شاملة للحياة حضارياً واجتماعياً ، ولم يكن ديناً للوعظ والإرشاد ولم يكن ديناً للزهد والرهبنة وإنما كان دين عمل وجهاد وكان الاسلام يهتم أولاً وقبل كل شيء ببناء إنسان جديد يتفاعل مع مقومات الحياة الحضرية الجديدة ، قبل أن يهتم ببناء مدينة جديدة ليكون الإنسان منسجماً مع الحياة الحضرية ، ففي المدينة المنورة التي إتخذها الرسول (صلى الله عليه وسلم) قاعدة العمل ، أقام الرسول (صلى الله عليه وسلم) أسس دولة حديثة تنظم شؤون

المجتمع لتحقق العدالة وعليه فلم يكن الإسلام مجرد دين ، بل حقبة حضارية جديدة تأتي وفق نمط أرسي تاريخياً يحمل معه نظرته الى الأشياء وفلسفته في الإبتكار.[٤٠]

والإسلام حينما أرسى دعائم الحياة الحضرية لم يرهق الإنسان في حسابه التشريعي وإنما أقام خطط المدينة على أسس النظرة الواقعية للإنسان ، والإسلام لم يستمد غاياته التي سعى الى بلوغها في تنظيم المدن وتنسيقها من ظروف مادية وشروط موضوعية مستقلة عن الانسان ذاته ، وإنما نظر الى تلك الغايات بوصفها معبرة عن مبادئ وقيم عملية ضرورية التحقيق من الناحية الخلقية ، ومما يميز المدينة الاسلامية أنها لم تنشأ لأسباب موضوعية بحتة وبإسلوب هندسي يراعي الوضع الإقتصادي والجوانب المادية فقط ، بل كانت تخطط منذ إنشائها لتلبية مطالب الإنسان وإشباع حاجاته النفسية والروحية والمادية ، وكانت المدينة منسجمة مع حاجات الناس في كل مراحل عمره وبمختلف فئاته فهي تشيد وتنمو وتتطور وفق خطة هندسية تراعي تقديم الخدمات للإنسان.

أولاً : تطور العمارة العربية الإسلامية

من الحقائق المعروفة أن العمارة تتميز من بين الفنون والعلوم والآداب بأنها أهم المراجع وأصدقها لتسجيل وتجسيم مراحل الحضارات في تطورها وعصورها المختلفة وقد أستمدت الأصول المعمارية الإسلامية مقوماتها الأولى من العقيدة الإسلامية ، وتتمثل نقطة البداية في تاريخ العمارة العربية الاسلامية في دار الرسول (صلى الله عليه وسلم) في المدينة المنورة بعد هجرته إليها بعد أن تحولت إلى مسجد ، ثم توالى عليها من إضافات وتعديلات ومن مراحل تطور حتى إنتهى إلى شكله النهائي في أيام الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) عام (٢٦هـ / ٦٤٦م)[٤١]. والذي إتخذ شكلاً معمارياً واضحاً منذ أول العصر العربي الإسلامي وذلك من قبل أن تتم الفتوح الاسلامية ويحتك العرب الفاتحون بالحضارات والطرز المعمارية المعاصرة.

وكل ذلك يوضح في جلاء تام أن المسجد لم يخضع لأية تأثيرات جاءت الى مهد الإسلام من تلك الحضارات وطرزها المعمارية ، وأصبح ذلك التصميم على بساطته الكبيرة نواة للعمارة العربية الإسلامية سواء للمساجد أو لغيرها من العمائر الدينية والمدنية. ولما كانت منطقة الحجاز همزة الوصل بين الشمال والجنوب وكانت القوافل تنتقل بينها في رحلات الصيف والشتاء فلابد أن يكون قد قام على أراض بقاع من الحجاز نوع أو أنواع من الطرز المعمارية المحلية وكان من الطبيعي أن تتضح فيها إبتكارات وتأثيرات بعض منها من هنا وبعض آخر من هناك ، وبعد إقامة الفتوحات وإرساء قواعد الدولة العربية الاسلامية على أساس الدين واللغة تكونت للعمارة

مفاهيم وأفكار وتقاليد على تلك الأسس المشتركة في جميع أمصار الدولة ، مما أضفى على الطراز كله في جميع تلك الأفكار وفي جميع العصور طابعاً عاماً مشتركاً غير أنه كان يشترك معه في نفس الوقت طابع معماري محلي يتميز به كل مصر عن الآخر، وفضلاً عن هذين الطابعين العام والخاص فقد يشترك في بعض الخصائص قطران أو أكثر متجاورين في الموقع الجغرافي أمثال المنطقة الشرقية في العالم الإسلامي ، وتشمل الهند وفارس والعراق ثم المنطقة الوسطى التي تضم الشام ومصر ثم المنطقة الغربية منه والتي تشمل إقليم برقة وأفريقيا والمغرب الأوسط والأقصى ثم الأندلس أو شبه الجزيرة الايبيرية.[٤٢]

وقد أسس المسلمون مدناً جديدة في البلاد المفتوحة مثل الكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان وواسط بمخطط عضوي مرن خالف المبادئ الهندسية والتناظرية في مدن الحضارات السابقة التي إعتمدت على أشكال هندسية منتظمة جامدة.[٤٣]

وبذلك يمكن القول أن المدينة الإسلامية بدأت في المدينة كمدينة دولة ثم مرت بطور المدينة الثغرة مثل الكوفة والبصرة ثم أصبحت مدينة ثابتة اذا أتضحت ملامح صريحة للطابع العربي الاسلامي للعمارة منذ تأسيس الدولة الأموية وامتداد الفتوح وإتمامها منذ أيام الوليد بن عبد الملك.

ومن المنطق أن تتدخل من هذا الطابع في البلاد المفتوحة تأثيرات محلية كانت قائمة في الأقطار التي تكونت منها الدولة قبل ووقت الفتح ، وهو أمر يتضح في بناء قبة الصخرة[٤٤] ، ويزيد الطابع الإسلامي وضوحاً في المسجد الأموي بدمشق الذي تبع تخطيطه النموذج النبوي مما يؤكد وضوح التقاليد المعمارية العربية الإسلامية في التفاصيل والعناصر والزخارف المعمارية تبدو لأول وهلة وثيقة الصلة بأشباه لها وجدت في الطرز السابقة والمعاصرة من هلينستية وبيزنطية ، ولكن مع بعض التعمق في الفحص فإن ملامح جديدة لتلك العناصر والتفاصيل ، بل إبتكارات ومفاهيم لم توجد في الطرز التي سبقت أو عاصرت قيام الطراز العربي الاسلامي مثل (مجاز القبلة والرواق والعقد المدبب) فضلاً عن إبتكار بيت المال الذي زودت به المساجد وبقي منها ذلك الأثر الرائع في المسجد الأموي.[٤٥]

ثم أخذ النضج في المفاهيم والتكوينات والتصميمات والتقاليد والسمات المعمارية العربية الاسلامية يزداد وضوحاً بمرور الزمن أثناء حكم الأمويين ويتمثل في عدة آثار معمارية بقيت من عهدهم في منطقتي (الشام والعراق) مثل مدينة واسط التي شيدها الحجاج بن يوسف الثقفي حوالي سنة (٨٦هـ / ٧٠٥م) وقصر الحير الشرقي والحير الغربي والذين شيدا سنة (١١٠هـ / ٧٣٠م) و قصر المشتى والذي شيد سنة (١٢٦هـ / ٧٤٤م) [٤٦].

وتدور عجلة الأيام لتأتي بمرحلة هامة أخرى في تاريخ العمارة العربية الاسلامية بعد المراحل الهامة السابقة وجاءت تلك المرحلة بعد وقوع حدثين حضاريين كان لكل منهما تأثيره على الاتجاهات المعمارية في العالم العربي الاسلامي .

ويتمثل الحدث الأول في فرار آخر الأمويين وهو عبد الرحمن الداخل الى الأندلس وتأسيسه للدولة الأموية فيها ، وهو الذي أنشأ مسجد قرطبة الذي بدأت به أولى مراحل نضج العمارة العربية الاسلامية في الأندلس.[٤٧] ومرحلة النضج الفني والطراز العربي الاسلامي وذلك من حيث التخطيط وأساليب البناء وظهور عدة عناصر معمارية وزخرفية كان بعضها قد وفد إلى الغرب الاسلامي من الشرق مع الجيوش القائمة.[٤٨]

ويتمثل الحدث الثاني في إنتقال حاضرة الحكم من دمشق قاعدة الأمويين في الشام إلى العراق معقل العباسيين وإلى بغداد الحاضرة الجديدة التي أسسها العباسيون بعد فترة قليلة من قيام دولتهم تبلغ نحو (١٥ سنة) ، ويعني بناء مدينة بغداد نقطة تحول حاسمة في تاريخ الحضارة والعمارة العربية الاسلامية وتخطيط المدن في العالم الاسلامي كله[٤٩] ، وكانت مدينة سامراء ثالثة المدن التي خططها العرب المسلمون على نظم هندسية بعد أن ضاقت الحاضرة الأولى بأهلها وبالأعداد الكبيرة من عسكر جيوش الخلافة الذين أسرف الخلفاء في جلبهم من أواسط آسيا.[٥٠] ، ووفدت تأثيرات سامراء مع مجيء أحمد بن طولون ليتولى حكم مصر من قبل الخليفة العباسي في بغداد والذي صحب معه عدداً من المعماريين العراقيين الذين شاركوا في بناء مدينته وعمائره وجامعه وقصره مضيفاً الى ما كان قائماً من تقاليد معمارية سابقة عليها في مصر أمثال قصر عمرو بن العاص والذي كان يتبع النموذج النبوي.[٥١] ومن العناصر الهامة في جامع إبن طولون (الشمسيات) التي تملأ جميع النوافذ في الجزء العلوي من الجدران كلها والذي يعد من الابتكارات العربية الاسلامية التي تأثرت بها العمارة الأوربية في العصور الوسطى ، أي الرومانسكية والقوطية.[٥٢] الأمر الذي يرجح لدينا أنه قد حدثت مراحل ناضجة واضحة في العصر الطولوني المنبثق عن العراق السامرائي في النصف الثاني من القرن (٢هـ / ٨م).[٥٣]

ثم تهيأت الفرص الى وضع طابع خاص بالعمارة والفنون الاسلامية في الأقطار الغربية جعلها تتميز بشخصية محلية غير متأثرة بالطابع السامرائي ولكنه ظل خاضعاً في نفس الوقت للطابع الاسلامي العام الموحد وذلك ما حدث من نزعات الاستقلال عن الخلافة العباسية ومن محاولات قيام دويلات في أرجاء العالم الاسلامي كله شرقه وغربه.

ويمكن القول أن العمارة العربية الاسلامية قد وضعت قواعدها منذ اللحظات الأولى من ظهور الإسلام وأن مفاهيمها قد أخذت تتبلور وتنضج منذ القرن الأول من الهجرة النبوية ، ثم تكاملت شخصيتها وأستقرت تقاليدها وإتضحت بشكل ملموس معالمها التي تميزت بها في كل من

جوهرها ومظهرها من بين سائر الطرز منذ منتصف القرن (٢هـ / ٨م) ، ومنذ ذلك الوقت ومن ذلك المنطلق الكامل النضج خرجت موجات من تأثيرات مفاهيمها وتقاليدها لتنتشر في الجزء الشرقي من العالم العربي الاسلامي فقد بقي من تأثيراتها في فارس الزخارف الجصية في المسجد الجامع بمدينة (نايين) ، كما تتجلى في بقايا قصر محمود الغزنوي في غزنة.[٥٤]

وقد أصبحت هناك حقب معمارية تاريخية وفنية مثل العمارة الأموية ، والعمارة العباسية والعمارة المغربية والعمارة الأندلسية والعمارة العثمانية تحمل كل منها بصمات خاصة بتلك الحقب التاريخية التي استغرقتها وتحمل طابع المكان والظروف الجغرافية والثقافية التي سادت فيها ومن هناك يكون غريباً أن نجد كثيراً من الطرز لمختلف العمائر الاسلامية سواء كانت مساجد أو قلاع أو قصور أو مدن إسلامية كاملة ، تعبر عن خصائص فنية وجمالية وتاريخية مثل الطراز الأموي أو العباسي أو الفاطمي أو الطراز المغربي والاندلسي أو الأيوبي أو المملوكي أوالسلجوقي وغيرها كثير.

ثانياً : أصالة العمارة العربية الإسلامية

لقد بنيت الحضارة الاسلامية على مبدأ "الوسطية" قال تعالى ((وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً))[٥٥] ، وإذا كانت الوسطية هي المبدأ الذي ينظم حياة الانسان فلا أقل من أن تكون هي المبدأ الذي ينظم العمران على مر الزمان ، والوسطية في العمارة يمكن إعتبارها مقياساً للكم والكيف في العمل المعماري تطبق على المعايير التصميمية التي تتناسب مع متطلبات المجتمع الاسلامي ، كما تطبق الوسطية أيضاً في إستعمال الزخرف إذا تطلب المقام وفي إستعمال التقنية المتوافقة النابعة من البيئة وقدرة المجتمع على الانتاج والبناء ، وهكذا تصبح الوسطية هي الموجهة لحركة التعمير والعمران في المجتمعات الاسلامية.[٥٦]

وأن الوسطية الاسلامية يمكن أن توائم بين الفردية والجماعية في التعبير المعماري بحيث تنعكس الفردية على العمارة من الداخل وتنعكس الجماعية على العمارة من الخارج ، فالمبنى من داخله ملك لصاحبه يوفر له خصوصيته الفردية أما من الخارج فهو ملك للمجتمع يخضع لمقوماته الاجتماعية التي ترضى عنها الجماعة من الناس ، لقد كانت الوسطية هي الصيغة العمرانية التي شكلت النسيج العمراني للمدينة الاسلامية في عصورها الأولى ، عندما كانت تدار الحركة العمرانية في المدينة بالمبادئ الاسلامية بإحترام خصوصية الجوار وعدم التعالي في البنيان وبتنظيم الفراغات الداخلية بما يتناسب مع التقاليد الاسلامية والتوظيف النفعي للفنون في

الأثاث والتنسيق الداخلي والخارجي ، عندما كان يتم كل ذلك بواسطة التقنية المتوافقة مع الامكانيات الحرفية والمالية المتاحة والخصائص البيئية والجغرافية المحلية مع مشاركة المجتمع في البناء والأخذ بمبدأ التكافل الذي يحض عليه الاسلام حتى كان للفقير نصيب من العمران كما كان للغني.[٥٧]

وهكذا إرتبطت العمارة بالعمران كأحد مكوناته الأساسية ، وكما إهتم الإسلام بالعمارة من منطلق مبدأ الوسطية فقد إهتم الإسلام أكثر بإحياء الأرض وتعميرها وبناء المجتمعات الجديدة بعمرانها وإنسانها على أساس من القيم الإسلامية التي تنظم حركة المجتمع ، وإذا كانت الأصالة ترتبط بالمعاصرة في تشكيل العمارة الاسلامية وتطورها مع تطور المجتمع وتقدمه فأن ذلك ينطبق في الأساس على التشكيل العمراني للمدينة الاسلامية بإعتبار العمارة عنصراً أساسياً في بناء المدينة وهكذا تنتقل النظرة للعمارة الاسلامية من المنظور الفردي الى المنظور الاجتماعي فيقول إبن خلدون في مقدمته "الملك بالجند .. والجند بالمال .. والمال بالعمارة"[٥٨] ، ويقول إبن الأزرق "لا جباية إلا بعمارة .. ولا عمارة إلا بالعدل .. وفي السياسة بالعدل عمرت الأرض وقامت الممالك" وقال ايضاً "إن الظلم يؤدي إلا خراب العمارة فإذا كان الظلم بتوجيه الأموال الى غير مستحقيها أدى ذلك الى ترك العمارة"[٥٩] وهكذا أخذ لفظ العمارة مفهومه الاجتماعي وبهذا المفهوم يتم بناء الفكر المعماري في الاسلام.

وقد نشأت العمارة العربية الاسلامية في بقعة من الأرض شهدت الحضارات العظيمة قبل الاسلام (وادي الرافدين ووداي النيل والهلال الخصيب) تميزت بظهور أنماط حضارية متميزة ذات تأثيرات على مستوى حضارة العالم فكان لابد للحضارة الاسلامية أن تستفيد من هذه الخبرات ، إذ لم يرفضوا كل شيء بل أخذوا ما يتفق مع مبادئ الدين الحنيف ، وعليه فلا يمكن أن تكون البلاد العربية خالية من العمارة كما نادى به بعض الغربيين حيث قال أحدهم بصريح العبارة "العمارة لا وجود لها في البلاد العربية في هذا الوقت" وهو يقصد وقت ظهور الاسلام.[٦٠]

وإن العرب لم يأتوا بأي شيء يذكر لإثراء الفن والمعمار بالبلاد التي فتحوها حيث كانت مدن العرب في شبه الجزيرة قبل الإسلام تجمعات متواضعة وبدأت كمحطات للقوافل حول نبع ماء أو كمراكز دينية حول صرح مهم كما في حالة مكة أو كواحة وسط الصحراء كما في حالة يثرب ، ونمت وتطورت هذه المدن تبعاً لأهميتها التجارية أوالزراعية وتمتعت هذه المدن رغم بساطتها ببعض الخواص العمرانية والتخطيطية المميزة النابعة من تراث سكانها الثقافي والاجتماعي.[٦١]

وأسس الرسول (صلى الله عليه وسلم) دولة إسلامية في المدينة المنورة قوامها العدل والأخاء بين المؤمنين ، إحتضنت المدينة المنورة المجتمع الاسلامي ومؤسساته المدنية مثل المسجد والسوق والقضاء وبيت الرسول والمرافق التعليمية والصناعية ، وقد شجع الرسول (صلى الله عليه وسلم) المسلمين الى الهجرة الى المدينة المنورة لإقامة أسس الدولة والدفاع عن الدين وتأسيس المجتمع المدني.[٦٢]

فضلاً عن ذلك يجب أن لا ننسى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأتباعه قد تحاشوا الإندفاع وراء التأنق في الوقت الذي تركزت فيه كل جهودهم وإمكاناتهم الذهنية والمادية على مقاومة الشرك وأهله وعلى نشر الدعوة الى الدين الحنيف والذي تم تفسيره بخلو الجزيرة العربية من الأناقة والدراية بالأساليب المعمارية والى جهل أهلها بكل ذلك ، وهي نظريات نادى بها المستشرقون على غير أساس وتعتبر أدلة أو براهين ، وأنه مما لا شك منه أن مدن يثرب ومكة والطائف وغيرها من المراكز الحضرية كان بها طرز من العمارة تتجلى فيها الأناقة والترف والزخارف مما يدل على أن العرب المسلمين قد إتجهوا الى التأنق في عمائرهم بعد أن إطمأنوا على إتمام الفتوح وبلوغ الهدف منها ، من حيث نشر الدين الاسلامي واللغة العربية وأرسوا قواعد الدولة العربية الاسلامية على أساس الدين واللغة وما قامت على تلك الأسس الحضارة العربية الاسلامية وعمائرها.[٦٣]

ومن المؤكد أن المستشرقين لم يدرسوا الحضارة والعمارة الاسلامية من خلال العقيدة ، بل انطلقوا في تفسيرها من خلال مقارنات مع الحضارات السابقة لكن تناسوا دور العقيدة التي مثلت الركيزة الاولى لكل ما قام به المسلمون خلال القرون الاولى وغاب عن أذهان أغلبهم أن الدين الاسلامي بعث لكافة الشعوب ، فكما أستوعب قلوب أهالي البلاد التي فتحها ، فقد استوعب بنائهم ووصفه في إطار وتخطيط اسلاميين كاملين يخدمان العقيدة الاسلامية فالبلاد التي فتحها الجيش الاسلامي كانت تحتوي على أنواع شتى من المعالم معابد وثنية وكنائس وأديرة مسيحية وكذلك منشآت دفاعية ، بما فيها الحصون والقلاع ... الخ ، واستعملت فيها عناصر معمارية عديدة . وقد اقتبس العرب أشكالاً من هذه العناصر واشتقوا منها بالطبع عناصر اخرى وأضافوا اليها عناصر ابتكروها واعطاءها من شخصيتهُ ما جعلها تكون فريدة من نوعها غير مشابهة لما سبقتها من العمارة مما أفرز فناً مستقلاً بذاته.[٦٤]

إن المسلمين في عصور انتشارهم أستنبطوا نظاماً معمارياً متكاملاً من التشكيلات والتراكيب المعمارية والزخرفية التي تكون في مجموعها الطراز الاسلامي الموحد في روحه وطابعه ،

فجاءت تلك العمارة الاسلامية تعبيراً جمالياً لدى الانسان من رؤية فريدة ومتميزة تجاه الواقع والمساحة والزمن والتاريخ بل الامة نفسها وأيضاً نحو ارتباطه العضوي بكل هذه العوامل.

كما أن المستشرقين تجاهلوا شيئاً آخر وهو خصب الخيال العربي فقد توصل الفنان العربي الى الجمع بين الاشكال الهندسية والبنائية فنتجت عنها أشكال زخرفية متنوعة وانطلاقاً منها ابتدعت أشكال فريدة في الزخرفة العربية الاسلامية ، كما امتاز الفنان العربي بملئ الفراغات وهو ما لم يكن معروفاً في الفنون الكلاسيكية.(٦٥)

وعليه فأقل ما يقال عن دراسات المستشرقين أنها تحتوي على العديد من الأخطاء الفادحة وهي نابعة عن عدة أسباب أولها الأخطاء الناتجة عن غير قصد وتتمثل في : جهل المستشرقين للغة العربية وعدم إدراك اصول الشريعة الاسلامية وجهلهم لكنوز الحضارة العربية وتراثها ، في حين ينبع النمط الثاني من الأخطاء عن تحيز الكثير من المستشرقين الذين حاولو إظهار العجز التام للعنصر العربي في الخلق والابداع ، بينما أكدوا على مساهمة الحضارات في إثراء الحضارة العربية ليصلوا الى الاستنتاج التالي وهو : ارتباط الأمصار العربية بالرومان والبيزنطيين والفرس وغيرهم.(٦٦)

فضلاً عن ذلك فيمكن التأكيد على جهل المستشرقين عما تزخر به البلاد العربية من معالم ، فرغم تباعد الشقة فإن الروابط الثقافية والفنية والمعمارية بقيت قائمة الذات ، وقد تجلى تأثير الفنون الاسلامية في فنون الغرب وتعدد في مظاهره ، ففي العمارة المدنية اقتبس الغربيون بعض الاساليب المعمارية من العراق فمثلاً أرسل الامبراطور (تيوفيلوس) سفيراً في القرن (٣هـ/٩م) الى بغداد لدراسة فن العمارة الاسلامي وبنى في سنة (٢١٧هـ / ٨٣٥م) قصراً بالقرب من بوابات القسطنطينية على طراز قصور بغداد وخططت الحدائق على نمط الحدائق الاسلامية.(٦٧)

ويكفي أن يجيء الاعتراف بتأثير فن العمارة العربي الاسلامي على فنون العمارة الغربية من المستشرقين أنفسهم منها هو (غوستاف لوبون) في كتابه حضارة العرب يشيد بهذا التأثير ، حتى ذهب الى أن الاوربيين في العصور الوسطى كانوا يستخدمون فنانيين ومهندسين من العرب كما فعل شارلمان على سبيل المثال وكما حدث في بناء الكثير من الابراج والقصور.(٦٨)

ومن هنا لا نعدم أن نجد مستشرقاً منصفاً مثل (جاستون فييب) إذ يقول "إذ كان معيار الاصالة في أي طراز من طرز المعمار هو إسلوب الفراغ فإن تصميم الجامع هو النموذج الذي يعبر بوضوح عن جوهر عقيدة الاسلام بصفته ديناً أصيلاً له شخصيته المتميزة .

وكذلك نجد المستشرق (بوركهارت) الذي يحدثنا عن الرمزية في العمارة الاسلامية في مؤلفه عن الفن الاسلامي حيث يجعل من الكعبة المشرفة الأصل الذي انبنت عليها كل تقاليد العمارة في الاسلام ، فالكعبة من حيث الشكل والصفات هي النموذج الأول للفن الاسلامي.(٧٠)

هذه نماذج خالدة تشهد بتراثنا الحضاري في العمارة وتدلل على نبوغ المهندسين المعماريين الذين ترعرعوا في ظل دولة الاسلام في المشرق والمغرب وقد ساهمت تلك الدول بأوفر نصيب في تطوير أساليب العمارة والفنون العالمية بما ابتكرت في طرز جميلة ورائعة يعتز بها مؤرخو الفنون والعمارة في العالم غرباً وشرقاً.

الخـــاتمة

من خلال هذا السرد التاريخي يتضح أن العمارة التي أفرزتها العصور الاسلامية كانت هي الوحيدة التي استقرت في وجدان الانسان العربي المسلم وأصبحت العقيدة هي الموجه الاساسي لمكوناتها الداخلية التي انعكست على تشكيلاتها الخارجية فكانت انعكاساً واضحاً للمقومات العقائدية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية للمجتمع ، تختلف في تفاصيلها من مكان لآخر ومن زمن لآخر وتوجد بينها وحدة الدين والعقيدة والعمارة الاسلامية لم تعد تخضع الى المقوم الشكلي أو التشكيلي كما يراها المستشرقون في عمارة العالم الاسلامي كمنطقة محددة المكان وفي حقبة تاريخية محددة الزمان بقدر ما يخضع الى المقوم العقائدي النابع من القيم والتعاليم الاسلامية التي لا تخضع الى محددات المكان أو الزمان ، وتعرف العمارة الاسلامية بذلك بشقيها المتمثلين في المضمون الملتزم بالعقيدة بنهجها التوسطي اجتماعياً واقتصادياً ، وبالشكل المتوافق مع البيئة وأبعادها الطبيعية والحضارية ، وهكذا ترتبط الاصالة بالمعاصرة في العمارة العربية الاسلامية في الحلقات المتتالية التي تدفع حركة المجتمع الاسلامي تقدماً وصعوداً إذا ما التزم بكل القيم العقائدية المنظمة لهذه الحركة الحضارية لخير أمة أخرجت للناس.

المصادر والمراجع

١- عفيفي ، د. أحمد كمال الدين ، نظريات في تخطيط العمران ، ط١ ، ٢٠٠٠م ، ص٢١ .

٢- عزب ، خالد محمد مصطفى ، تخطيط وعمارة المدن الاسلامية ، الدوحة ، ط١ ١٩٩٧ ، ص٧٢ .

٣- أكبر ، جميل عبد القادر ، عمارة الأرض في الاسلام ، بيروت ، ١٩٩٥ ، ص١٧٦-١٧٧ .

٤- عزب ، فقه العمارة الاسلامية ، ط١ ، ١٩٩٧ ، ص١٧ .

٥- الرباط ، ناصر ، ثقافة البناء وبناء الثقافة ، بحوث ومقالات في نقد وتاريخ العمارة ، ١٩٨٥ – ٢٠٠٠ ، لبنان ، ٢٠٠٢ ، ص٤٤ ، الديب ، عبد العظيم ، المستشرقون والتراث ، ط٢ ، ١٩٩٢ ، ص٩ .

٦- أرناؤرط ، رائد ، الاستشراق والعمارة العربية (إشكالية بين الفكر والهوية) ، عمان ، ٢٠٠٩ ،ص٩٢ ، الشافعي ، فريد محمود ، العمارة الاسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ط٢ ١٩٨٢ ، ص٧ .

٧- رايس ، دافيد ، الفن الاسلامي ، دمشق ، ١٩٧٧ ، ص١٢ ، عزب ، فقه العمارة الاسلامية ، ص١٩ .

٨- الشافعي ، فريد محمود ، العمارة العربية في مصر الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٠ م١ ، ص٢٤ .

٩- أحمد ، د. مريم آيت ، فن المعمار الاسلامي جسر للتواصل الحضاري والانساني مجلة حراء ، جامعة ابن صقيل ، المغرب ، ٢٠١٠ ،ع٢١ ، ص٣٢ .

١٠- البهنسي ، محمد صديق ، فن العمارة ، ط١ ، ٢٠٠٦ ، ص٢٠ ، الشلوي ، يونس ، مدونة ليبية تعنى بالآثار والفنون القديمة ، ٢٠٠٩ .

١١- البهنسي ، فن العمارة ، ص٢٠ .

١٢- البهنسي ، فن العمارة ، ط١ ، ٢٠٠٦ ، ص٢٠ .

١٣- البهنسي ، فن العمارة ، ط١ ، ٢٠٠٦ ، ص٢٢ .
١٤- البهنسي ، فن العمارة ، ط١ ، ٢٠٠٦ ، ص٢٢ .
١٥- حسن ، زكي محمد ، فنون الاسلام ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص٣٦ .
١٦- الخشاب ، مصطفى ، دراسة مجتمع ، ١٩٧٧ ، ص٣٧ .
١٧- حموش ، د. مصطفى أحمد ، المدينة الاسلامية وإشكالية المصطلح (الحلقة الاولى) ، بحث منشور على موقع uraburbannetwork
١٨- عزب ، العمارة الاسلامية من الصين الى الأندلس ، ٢٠١٠ ، ص٢٢ .
١٩- عزب ، العمارة الاسلامية من الصين الى الأندلس ، ٢٠١٠ ، ص٢٢ ، الرباط ، ثقافة البناء وبناء الثقافة ، ص٤٤ .
٢٠- الشافعي ، العمارة الاسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ص٧ .
٢١- كريستي ، أرنولد بريجس ، تراث الاسلام في الفنون الفرعية والتصوير والعمارة ، ترجمة زكي محمد حسن ، ط٣ ، ١٩٨٤ ، ص٨٢ .
٢٢- حكيم ، د. بسيم سليم ، المدينة العربية الاسلامية (قواعد البناء والتخطيط) ، ٢٠٠٨ ، ص٨٢ ، قراءات فلسفية في عمارة المجتمعات العربية بين التراث والحداثة ، ٢٠٠٩ ، ص٢٧ .
٢٣- عزب ، تخطيط وعمارة المدن الاسلامية ، ص١٨ .
٢٤- البهنسي ، عفيف ، الفن والاستشراق ، ط١ ، ١٩٨٣ ، ص٢٠٢ .
٢٥- سلمان ، عيسى وآخرون ، العمارات العربية الاسلامية في العراق ، بغداد ، ١٩٨٢ ، ح٢ ، ص٦٣ .
٢٦- أكبر ، عمارة الارض في الاسلام ، ص١٧٧ .
٢٧- أكبر ، عمارة الارض في الاسلام ، ص١٧٧ .
٢٨- أكبر ، عمارة الارض في الاسلام ، ص١٧٧ .
٢٩- الشافعي ، العمارة الاسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ص٨ ، الرباط ، ثقافة البناء وبناء الثقافة ، ص٤٣ .
٣٠- الرباط ، ثقافة البناء وبناء الثقافة ، ص٤٣-٤٥ .

٣١- ابن دقماق ، صام الدين ابراهيم ، (٧٥٠ هـ - ٨٠٩ هـ) ، الإنتصار لواسطة عقد الأمصار ، القاهرة ،١٨٩٢م ، ج٤ ، ص٩ ، الشافعي ، العمارة الاسلامية ماضيها وحاضرها ومتقبلها ، ص٧ .

٣٢- G. Marcais, l'artmusulman, P.U.F, 1962, pp.20

٣٣- باقر ، طه وآخرون ، المرشد الى مواطن الآثار ، الرحلة الثانية ، ص٣١ .

٣٤- Greswell, A.K.C, Early muslim Architeclures, Vol.I , oxford clarendon, Press, 1969, Pr.1, PP. 10

٣٥- Gresweel, Early muslim Architeclures, Pr.1. PP. 10

٣٦- اعتمد المستشرقون في ذلك على بعض الاشارات من بينها مثلاً :

البلاذري ، ابو الحسن احمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩ هـ/٨٩٢م) ، فتوح البلدان ، مراجعة: رضوان محمد، بيروت ،ص١٤٧ ، المقدسي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد (ت٣٧٥هـ/٩٨٥م) ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق: دي غويه ،ط١ ، ليدن ،١٩٠٦م ، ص١٥٦ .

٣٧- فكري ، أحمد ، مساجد القاهرة ومدارسها ، القاهرة ، ٢٠٠٨ ، ص٤٢ .

٣٨- زكي ، فنون الاسلام ، ص٣٦ ، حسن ، علي ابراهيم ، التاريخ الاسلامي العام ، ١٩٦٣ ، ص٣١-٣٢ .

٣٩- الشافعي ، العمارة العربية في مصر الاسلامية ، ص٢٤ .

٤٠- سلمان ، العمارات العربية الاسلامية في العراق ، ج٢ ، ص٣٩ .

العمري ، حفصة رمزي ، أثر الدين الاسلامي على تشكيل أنماط أبنية العمران ، اطروحة دكتوراه ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٣ ، ص٤٥ .

٤١- الشافعي ، العمارة الاسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ص١و٢ .

عزب ، تخطيط وعمارة المدن الاسلامية ، ص٥ .

الباشا ، حسن ، موسوعة العمارة والآثار والفنون الاسلامية ، ط١ ، ١٩٩٨ ، م١ ، ص٤٠ .

٤٢- الشافعي ، العمارة العربية الاسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ص٩ ، الرباط ، ثقافة البناء وبناء الثقافة ، ص٤٤و٤٥ .

٤٣- الرباط ثقافة البناء وبناء الثقافة ، ص٤٥ .

٤٤- الشافعي ، العمارة العربية الاسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ص١٠ .

٤٥- الشافعي ، العمارة العربية الاسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ص١١ .

٤٦- جلال ، شوقي ، العلوم الهندسية في العمارة الاسلامية ، الكويت ، ١٩٥٠ ، ص١١ .

٤٧- السالم ، محمود عبد العزيز ، القصور الاسلامية في الاندلس ، مجلة المجلة ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ع١٠ ، ص٥٨ .

٤٨- مورينو ، مانويل جوميث ، الفن الاسلامي في اسبانيا ، ترجمة : لطفي عبدالبديع والسيد عبدالعزيز السالم ، ١٩٨١ ، ص١٦ – ١٨ ، الشافعي ، العمارة العربية في مصر الاسلامية ، م١ ، ص٣٩٧ .

٤٩- الشافعي ، العمارة العربية الاسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ص٣٣ .

٥٠- الشافعي ، العمارة العربية الاسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ص٣٣ . الباشا ، موسوعة العمارة والآثار والفنون الاسلامية ، م١ ، ص٢٢٢-٢٢٤ .

٥١- الشافعي ، العمارة العربية في مصر الاسلامية ، م١ ، ص٣٦١ .

٥٢- الشافعي ، العمارة العربية الاسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ص٣٧ .

٥٣- الشافعي ، العمارة العربية في مصر الاسلامية ، م١ ، ص٣٨٤ ، الباشا ، موسوعة العمارة والآثار والفنون الاسلامية ، م١ ، ص٣٥٥ .

٥٤- الشافعي ، العمارة العربية الاسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ص٣٢ .

٥٥- القرآن الكريم ، سورة البقرة ، الاية ١٤٢ .

٥٦- البهنسي ، فن العمارة ، ص١٢٧ .

٥٧- جلال ، العلوم الهندسية في العمارة الاسلامية ، ص٦٢ .

٥٨- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد(٨٠٨هـ/١٤٠٥م) ، تاريخ ابن خلدون والمعروف بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر ، باريس ، ١٨٥٨ ، ج٣ ، ص٢٣٧ .
٥٩- ابن الازرق ، أبو عبدالله محمد الاندلسي ، بدائع السلك في طبائع الملك ، تحقيق د. محمد عبدالكريم ، ١٩٧٧ ، ج٢ ، ص٧٦٤ .
٦٠- الشافعي ، العمارة العربية الاسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ص٧ .
ابن دقماق ، الانتصار بواسطة عقد الامصار ، ج٤ ،ص٩ .
Gre well, early Muslim architecture, pr.1, p.p. 20
٦١- الرباط ، ثقافة البناء وبناء الثقافة ، ص٤٤ .
٦٢- عثمان ، محمد عبد الستار ، المدينة الاسلامية ، الكويت ، ١٩٨٨ ، ص٥١ .
٦٣- الشافعي ، العمارة العربية الاسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ص٨ .
الرباط ، ثقافة البناء وبناء الثقافة ، ص٤٤ .
٦٤- الشافعي ، العمارة العربية في مصر الاسلامية ، ص٢٤ .
٦٥- الشافعي ، العمارة العربية في مصر الاسلامية ، ص٢٤ .
٦٦- البهنسي ، الفن الاستشراقي ، ص٢٠٢ .
٦٧- الباشا ، موسوعة العمارة والآثار والفنون الاسلامية ، م١ ، ص٦٢٥ .
٦٨- لوبون ، غوستاف ، حضارة العرب ، ترجمة وتحقيق : عادل زعيتر ، ط١ ، ١٩٦٩ ، ص٤٣٢ .
٦٩- اتنجهاوزن ، ريتشارد ، الفنون والاثار الاسلامية ، ترجمة : محمد مصطفى زيادة ، ١٩٥٣ ، ص٧٤ – ٨٥ .
٧٠- بوركهارت ، ابراهيم (تيتوس) ، الفن المقدس ، ص١٢ .

Arab Islamic architecture in the orientalist Perspective

Teacher Dr:
Ban Hussein AL- Sungari
And
Loma fake ahmmed
Islamic History

Mustansiriya University
Presidency University
Department Of Cahn